MERS
MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN-NAHAR
Date : 24-6-93
Photo No. : 193

٨٠ عاماً على فكرة الانشيخ

عندما يزور المرء للمرة الاولى متحف "اورسيه" في باريس، يفاجأ بأن القرن التاسع عشر الذي خصص له هذا الصرح تم اختصاره الى الفترة الممتدة بين ١٨٤٨ و١٩١٤! يفاجأ لكنه لا يلبث أن يقر بأن التقويم التأريخي الاعتيادي لا يكتسب معنى الا بالاستناد الى تقويم تاريخي آخر، ذي طابع سياسي وحضاري. وهكذا ينهض التقويم التاريخي الاوروبي، وباجماع المؤرخين والمفكرين، على اعتبار العام ١٩١٤ البداية الحقيقية للقرن العشرين، لضخامة المنعطف الذي شكلته في حياة الامم الاوروبية تلك المجزرة الكبرى التي سميت الحرب العالمية الاولى. عندنا ايضا، كانت الحرب الكبرى منعطفا. الا ان قرننا العشرين، اذا ما اردنا تحديده بتقويم عربي خاص، بدأ قبل ذلك.

بدأ قرننا العشرين قبل سنة ونيف من الحدث الكبير. بدأ بحدث اصغر بكثير. حدث غاب على الارجح عن بال جل معاصريه. حدث يكاد يعتبر على هامش التاريخ لو قيس بنفوذ المشاركين فيه على الساحة الدولية آنذاك. حدث لم يكتسب اهميته الا بعد حين، عندما اصطدمت مفاعيله، الواعدة والملتبسة في آن معا، بالحدث الكبير لتؤسس لحياة عربية جديدة. انه المؤتمر العربي الاول الذي نحتفل هذا الاسبوع بمرور ثمانين سنة على انعقاده في باريس، في قاعة "جمعية الجغرافيا"، على جادة سان جرمان، الرقم ١٨٤.

ولكن، أنحتفل فعلا بذكرى هذا الحدث؟ أهناك من يحتفل؟ لا نخالنا نجازف اذا قلنا ان السواد الاعظم من المواطنين في المناطق التي تمثّلت في المؤتمر، اي كامل بلاد الشام، يجهل هذه المحطة من تاريخنا، وان من لا يجهلها نسيها، وان من لم ينسها يفضّل ان يتناساها هربا من طعم المرارة الذي سيشعر به مضاعفا عندما يقيس واقع اليوم بآمال الامس. ولا شك ايضا ان الاحتفال بالحدث المؤسس للعروبة السياسية المعاصرة يحمل مقدارا كبيرا من العبثية عندما تكون الفكرة العربية منزوعة الفتيل فاقدة الروح، وعندما لم يعد ممكنا العثور على اي قوة سياسية راغبة في انتشال رايتها الممزقة من حطام الهزائم، وعندما نكون قد تركنا القرن العشرين، لا لندقّ باب القرن الحادي والعشرين، انما لندخل في سبات عميق.

يستحيل، بطبيعة الحال، الادعاء اننا ندخل القرن الحادي والعشرين، لما يحمله هذا التعبير شبه السحري من مضامين علموية. لكن الاكيد ان قرننا العشرين انتهى قبل أوانه. انتهى بانتهاء المقامرة، في آخر المغامرات، حرب الخليج.

ليس ادل على ذلك من هذا الغياب المريع للامل في المجتمعات العربية. دائما كان هناك امل بعد الهزائم: بعد تحطم المشروع الفيصلي، بعد نكبة فلسطين في ١٩٤٨، بعد هزيمة ١٩٦٧، بعد كمب ديفيد، وحتى بعد اجتياح لبنان العام ١٩٨٢. وهذا تحديدا ما يميز اليوم عن البارحة، اذ لا يستشعر المرء، عندما ينظر الى الجسم العربي، بأي امل، اللهم عند تلك القوى الظلامية الصاعدة من قعر الهزائم. ولكن أليس اليأس اقل ضررا من امل كهذا!

ولكن، على رغم كل ذلك، وجب ان نتذكر. وان نحتفل. بل ربما كانت ضرورة الاحتفال متأتية من السواد الذي يلفنا. اكثر من ذلك، لعله صار حيويا ان نلجأ اليها قبل ان يداهمنا اولئك الذين لا يحلمون الا باعادة كتابة التاريخ، فنجهر ان الفكرة العربية لم تكن فكرة خاوية، وانها عنت الكثير لثلاثة اجيال على الاقل، وما زالت تختزن طاقات كبيرة.

نسوق هذا الكلام بعيدا عن الاوهام الاسطورية التي جعلت تاريخنا يبدأ من نشوء القومية العربية المعاصرة، متغافلة عن المساهمة الحضارية الكبيرة التي اعطتها السلطنة العثمانية للتاريخ العربي، وهي مساهمة يعاد اكتشافها منذ بضع سنوات. الا ان اعادة النظر بالتجربة العثمانية لا تقلّل من اهمية "اليقظة" العربية، والمؤتمر العربي الاول ابرز محطاتها. ولا يقلل منها ايضا كونها خدمت، عن وعي او غير وعي، مصالح استعمارية. فمهما تكن قدرة الدول الغربية على استغلال تلك اليقظة، فإننا نعرف جليا ان الفكرة العربية كانت اكبر من ان توظّف في خدمة الامبراطوريات الجديدة، وانها افلتت من شباكها متى استطاعت. بل هي اكتسبت كامل معناها من تضاربها مع مصالح من اعتقد تدجينها، فكانت وسيلة تحرر من الاستعمار الجديد، في معركة متجددة ابدا. وكانت ثانيا وسيلة تحرر لمجتمعاتنا من قيودنا الذاتية، وان كانت قد افضت الى فرض قيود جديدة. وكانت اخيرا سبيلنا الى العالمية والعصرنة، هي التي وعدت "القبائل برحلة صيف من الجاهلية" كما قال محمود درويش عن جمال عبد الناصر في رثائه اياه.

لم يعد هناك من وهم عند احد، والكل يعرف انه كاد يفوت الأوان. لكننا نعرف في الوقت نفسه ان الفكرة العربية التي كانت سبيلنا الى القرن العشرين، وإن لم تنجح كليا في ذلك، الا انها ايضا سبيلنا الوحيد الى القرن الحادي والعشرين، اذ ما شئنا اليه سبيلا.

سمير قصير